بذور ثورة

فى أواخر القرن الماضى بدأ الغرب يستقر بسياسته ومصالحه وجيوشه وأعلامه فى كثير من أجزاء الوطن العربى ، وقد كانت الجزائر هى أسبق بلد عربى إلى السقوط فى يد الاستعمار الغربى ، فهى لم تسقط فى أواخر القرن التاسع عشر كغيرها ، وإنما سقطت فى أوائله حيث استقرت السيطرة الفرنسية فيها سنة ١٨٣٠ .

أما تونس ، بلد (أبو القاسم الشابى) فقد سقطت فى يد الفرنسيين سنة ١٨٨١ ، أى قبل الاحتلال الإنجليزى لمصر بعام واحد ، ومنذ ذلك الحين كانت تخضع لحكم مزدوج : حكم الفرنسيين أولاً وحكم البای ثانيًا ، والبای هو الذى ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم الأسرة (الحسينية) التى ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥ إلى سنة ١٩٥٦ حيث أعلنت الجمهورية التونسية وتم خلع آخر (البايات) . والبای كلمة تركية كانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك وهى كلمة تشبه كلمة (الخديوى) فى مصر .

وسرعان ما قام التحالف بين البای والفرنسيين ضد مصالح الشعب ، وهو نفس التحالف الذى حدث بين الخديوى توفيق وبين الإنجليز الذين دخلوا مصر فى عهده ، ثم استمر هذا الحلف بعد ذلك كحلف تقليدى بين الإنجليز وأسرة محمد على ، وكان هذا النوع من التحالف فى تونس ومصر على

السواء موقفًا تقضى به طبيعة الأمور ، فلا الباى فى تونس ولا الخديوى فى مصر كانا يدافعان عن مصلحة الشعب وإنما كانا يدافعان عن مصالحهما الخاصة فى الحكم والاستغلال ، وكان يكفى أن يقتسما المغانم مع المستعمرين الأجانب ولا حساب للشعب بعد ذلك .

ومن مواقف باى تونس التى تكشف عن طبيعة هذا النوع من الحكم أنه أرسل جيشًا تونسيًا إلى الحدود الجزائرية سنة ١٨٨١ وذلك لمساعدة الجيش الفرنسى ضد الجزائريين ... ولهذا الموقف وأمثاله لم يجد الفرنسيون أى دافع لتغيير نظام الحكم المحلى فى تونس ، ذلك النظام الذى يقف الباى على قاعدته وقمته معًا .

وفى الحرب العالمية الأولى أعد (باى) آخر من (بايات) تونس جيشًا من ستة وخمسين ألفًا من التونسيين ليحارب فى صفوف الفرنسيين ، وقد انتهت الحرب بقتل اثنى عشر ألفًا منهم . واستمر بايات تونس فى تنازلهم عن حقوق الشعب وهى الحقوق التى لم يعترفوا بها فى يوم من الأيام ، كل ذلك فى سبيل مصالحهم الخاصة ، وخوفًا من الاصطدام مع الفرنسيين ، واستمرارًا لطبيعة هذا النوع من الحكم الذى يقوم على أساس (الفرد) أو (الأسرة) أو ما يسمى (بالحقوق الإلهية) التى ينسبها بعض الحكام لأنفسهم ، والتى كانت سببًا لكثير من الثورات فى الشرق والغرب ، وهى ثورات أدت بكثير من أصحاب (الحقوق الإلهية) المصطنعة الزائفة إلى المشانق والمقاصل والنفى فى الجزر البعيدة والأراضى المهجورة .

وكان من المظاهر البارزة الأخرى لتنازل البايات عن حقوق الشعب أن تم تسجيل أفضل الأراضى الزراعية فى تونس باسم المستوطنين الفرنسيين، كما أصبحت معظم الوظائف التونسية فى يد الفرنسيين ، فمن بين ثلاثين ألف موظف إدارى فى تونس بعد الحرب العالمية الأولى هناك خمسة وعشرون ألفًا

على التقريب من الفرنسيين فى مقابل خمسة آلاف من أبناء تونس .

وفى الميدان الاقتصادى كان اليهود يسيطرون على معظم الصناعات والحرف الصغيرة ، وعلى الأخص صناعة الأحذية وصناعة النسيج ، وكان يهود تونس يطالبون بأن يطبق عليهم القانون الفرنسى وقواعد الحياة الفرنسية فى كل شيء ، حيث كانوا يشعرون بالولاء للمال أولاً ، شأن (المزاج اليهودى) و (التاريخ العملى لليهود) فى كل أنحاء العالم وفى مختلف مراحل التاريخ ... وكان اليهود يشعرون ــ ثانيًا ــ بالولاء لفرنسا ، ولم يكونوا يشعرون بالولاء لتونس التى ولدوا فيها وعاشوا على خيرها ... فلقد كانت فرنسا فى تونس هى السلطة الاستعمارية التى تحمى الاستغلال والمستغلين داخل المجتمع التونسى .

ثم تأتى (المأساة الثقافية) إذا صح التعبير لتعطى الملامح الأخيرة للمحنة التى كانت تعيش فيها تونس فى ظل الاستعمار ، فقد كانت المدارس المختلفة تضم ١٢,٥ % ، ٨٧,٥ % من أبناء فرنسا ، وذلك حسب الإحصاء الذى أورده عمر فروخ فى كتابه عن (الشابى).

هذه صورة عامة لتونس فى أوائل القرن العشرين ، وفى هذا الجو المليء بالظلم والحزن ولد أبو القاسم الشابى .. وبالتحديد فى ٢٤ فبراير ــ شباط ــ سنة ١٩٠٩ .

ولكن هذه الفترة لم تكن مظلمة تمامًا ولا خالية من أى شعاع من الضوء ، فكلما اشتد الظلم والتأخر اللذان يهددان شعبًا حيًا بالهلاك ، بدأت الأفكار الثورية تولد كبذور لعالم جديد وقوى جديدة تهدف إلى إنقاذ الشعب من الكارثة ... وربما اختبأت الأفكار الثورية المتفتحة فى الحوارى والبيوت الفقيرة البسيطة ، وربما استترت بالظلام والتظاهر بالسذاجة واختفت وراء النكتة وخفة الروح ، كل ذلك لتتحايل وتتمكن من الانطلاق بعد ذلك لتكون أساسًا

للمستقبل ، وربما اختبأت هذه الأفكار القوية الخصبة فى عقل رجل يلبس العمامة ويتحدث باللغة العربية الفصحى ، ويبدو وكأنه رجل دين لا علاقة له بالدنيا ، أى لا علاقة له بالحكام والشعوب ، وربما اختبأت هذه الأفكار على (مصطبة) يجلس فوقها ناس يتدارسون ـــ فى العلن ـــ أمور الفقه والنحو وما إلى ذلك ، وهم فى حقيقة أمرهم يدرسون معنى الثورة وطريقة الثورة ... يدرسون (سر الحياة) السليمة ، ويفكرون فى تغيير الظلم ونشر العدل فى المجتمع المظلوم ، وربما اختبأت هذه الأفكار الثورية على حصيرة جامع يقف الناس فوقها ، يتجهون بقلوبهم إلى الله ، وهم فى أعماقهم يشعرون أن الله هو العدل وهو رغيف الخبز وهو الحروف التى حرم الملايين من تعليمها ، لأن الله عادل وعليم ومحب للفقراء .

وهذا ما حدث فى تونس ... فقد كانت تظهر وسط الظلام الحالك أشعة خافتة هنا وهناك ، وكانت هذه الأشعة الخافتة هى التى تجمعت وقويت بعد ذلك لتقلب الأمور فى تونس وفى كثير من أجزاء الوطن العربى الأخرى .

وكان الشعاع الأول هو بدون شك ذلك الشيخ الغريب الذى ينتقل من بلد إسلامى إلى بلد آخر (يوزع السعوط بيمينه ويوزع الثورة بيساره) ... ذلك هو جمال الدين الأفغانى ، الأب الشرعى (لثورات أوائل القرن العشرين) فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ، رغم أنه بذر بذور هذه الثورات فى أواخر القرن التاسع عشر .

لم يذهب الأفغانى إلى تونس بنفسه وإنما ذهب إليها بمبادئه وتلاميذه ، وفى سنة ١٨٨٥ ، أى بعد احتلال تونس بأربع سنوات تقريبًا ، ذهب الشيخ محمد عبده صديق الأفغانى وتلميذه إلى تونس، وكان هدف الرحلة هو الاتصال بالمثقفين التونسيين ودفعهم إلى الثورة على الأوضاع التى كان العالم الإسلامى العربى يعانى منها فى ذلك الحين .

والفكرة التى كان يحملها الشيخ محمد عبده معه ، وهى فكرة الأفغانى فى الوقت نفسه – هذه الفكرة هى تجديد الإسلام ، وربطه بالحياة العصرية ، وتخليص الدين من البدع والخرافات ، والدعوة إلى الإيمان بالعلم الحديث ،والخروج بالدين من مرحلة (الكهانة) والانعزال عن الحياة فى الجوامع والمدارس المختلفة إلى مرحلة جديدة حية ، وبذلك يستطيع العالم الإسلامى أن يعود إلى قوته ، ويتخلص من الاحتلال الغربى وسيطرة البايات فى تونس ، وأسرة محمد علىّ فى مصر ، والأتراك فى سوريا ولبنان .

ودارت المناقشات الواسعة بين الشيخ محمد عبده وبين مشايخ (جامع الزيتونة) وهو الجامع الذى كان وما زال يقوم بدور الأزهر فى مصر . وكان لهذه المناقشات أثرها الكبير فى تونس من الناحية الفكرية والناحية السياسية .

ولابد من الإشارة هنا إلى ظاهرة هامة من الظواهر الرئيسية فى أوائل القرن العشرين، هذه الظاهرة هى أن (الثائر) فى معظم الأحوال فى الوطن العربى كله فى تلك الفترة كان ثائرًا دينيًا . وهناك أكثر من سبب لهذه الظاهرة .

ففى معظم البلاد العربية كانت (الثورة) موجهة ضد الغرب ، مما كان يجعل هذه البلاد تتجه إلى فكرة الخلافة الإسلامية كرمز للكفاح ضد أوروبا . فهذه الخلافة ـــ من الناحية الشكلية على الأقل ـــ هى التى توحد المسلمين وتجعل لهم شخصية قوية فى مواجهة الاستعمار الغربى ، فقد كان المعنى الأول الظاهر لهجوم الاستعمار الغربى على البلاد العربية هو معنى القضاء على المسلمين والحضارة الإسلامية ، مما جعل خروج (الثائر) من معطف الثقافة الدينية الإسلامية أمرًا ضروريًا وملائمًا لروح تلك الفترة ، أى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين ، وحتى الثورة العربية سنة ١٩١٦ كانت تهدف إلى إقامة خلافة إسلامية عربية فى وجه الخلافة الإسلامية التركية ، ونستطيع أن نجد قائمة طويلة من الثوار فى الوطن العربى فى تلك الفترة كان

الأساس فى تكوينهم هو الثقافة الدينية مثل : الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى والنديم وعبد العزيز جاويش وبن باديس وغيرهم .

كذلك لم يكن للعرب ثقافة خاصة سوى الثقافة الإسلامية ، لم يعرفوا الثقافة الغربية إلا على نطاق محدود ، ولم تتكون لهم بعد ثقافة جديدة معاصرة ، ولذلك لجئوا إلى بيتهم الوحيد الذى يملكونه وهو التراث العربى الإسلامى ... كان العرب بحاجة إلى قوة معنوية تسندهم فى صراعهم ، ولم يكن لديهم قوة معنوية سوى (الإسلام) وقد تجسدت الثقافة العربية وروح الحضارة العربية حتى ذلك الوقت فى شىء واحد هو الإسلام. وفى تلك الفترة فقد العرب كل شىء على التقريب ، فكانت أنظمة الحكم متخلفة رجعية ، وكان الاقتصاد مرتبكًا خاضعًا للاستعمار يقوم على أسس واهية ... ومن هنا لم يكن أمام العرب فى أى محاولة لليقظة أو الثورة إلا أن يعودوا إلى تراثهم الإسلامى القديم يستمدون منه قوة وعزمًا على التقدم والتحرك إلى الأمام ... فلقد كان الواقع الذى يعيشون فيه فاسدًا لا يحمل أى نوع من أنواع الإلهام الحضارى والإنسانى .

وهنا نجد ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، فرائحة (الوحدة) كانت تشيع فى العالم العربى فى ذلك الحين ، وكان الأساس الوحيد الظاهر لهذه الوحدة هو الأساس الإسلامى ، وقد ظلت البذرة الفكرية للوحدة العربية كما هى ، ولكنها تطورت ونضجت وأصبح أساسها الآن هو الأساس القومى بمعناه العصرى ... معنى الاشتراك فى التاريخ والمصلحة والمستقبل .

كذلك كانت الأفكار الدينية فى أوائل القرن العشرين متغلغلة فى عقول الناس وقلوبهم حتى أصبح من الضرورى أن يبتدئ كل شىء بهذه العبارة (المباركة) : (بسم الله الرحمن الرحيم)... كان لابد أن يبدأ كل شىء بها، حتى الثورة نفسها كان لابد أن تبدأ بهذه العبارة .

وبالفعل بدأت الثورة على يد هؤلاء الثوار الدينيين ، وكانت البداية هى الدعوة إلى بعث الإسلام وتجديد الثقافة الإسلامية ، لكى يستطيع العرب أن يتلاءموا مع العصر الحديث ، ويجدوا قوة تسمح لهم بمواجهة التحدى الوافد إليهم من وراء البحار ... من الغرب .

وظهر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وكانت أهدافهما ثورية إصلاحية ولكن من خلال الدين ، وقد حدد جمال الدين الأفغانى أهدافه ، وأهداف الثوار فى ذلك العصر ، فى فكرتين رئيسيتين . الفكرة الأولى هى محاربة الخرافات التى انتشرت فى حياة جماهير المسلمين العقلية والواقعية ، أما الفكرة الثانية فهى الاهتمام بإقامة العقيدة على أساس النزعة العقلية ، لا النزعة الغيبية ، وكانت هذه الفكرة الأخيرة تهدف إلى القضاء على العداء التقليدى الموروث الذى تراكم خلال أجيال طويلة بين العقل والدين ، وبالتالى بين الحضارة الحديثة وبين العقلية الإسلامية فى صورها المختلفة .. لقد كانت هذه الفكرة الثورية تهدف إلى إعادة إيمان المجتمع العربى الإسلامى بالعقل ، وإفساح المجال أمامه للابتكار والعمل ، بعد أن كانت الروح المسيطرة على الحياة هى روح التسليم بالواقع ، وعدم القدرة على تغيير هذا الواقع باعتباره صورة من إرادة عليا لا تقبل المناقشة أو التمرد .

وقد كان من تأثير هذه الحركة الفكرية الجديدة التى قادها جمال الدين الأفغانى وحملها معه محمد عبده إلى تونس فى رحلته الأولى سنة ١٨٨٥ ثم فى رحلته الثانية سنة ١٩٠٣ ، أن قامت جمعيات فكرية عديدة تدعو إلى التجديد والتطور وكان أبرز هذه الجمعيات وأكثرها تأثيرًا على حياة تونس الفكرية هى (جمعية قدماء الصادقية) التى نادت بالأفكار التحررية الجديدة ، ودعت بقوة إلى الأخذ بمبادئ الحضارة العصرية ، وكان الشابى عضوًا فى هذه الجمعية حيث ألقى بها محاضرته الهامة (عن الخيال الشعرى عند العرب) .